الفتوحات الإسلامية

1



بقلم
عبد الحميد عبد المقصود

رسوم
إبراهيم سمرة

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
١٠ شارع كامل صدقي بالفجالة - القاهرة

تَخْتَلِفُ الْفُتُوحَاتُ الإِسْلاَمِيَّةُ الْعَرَبِيَّةُ لِقَارَّةِ أَفْرِيقْيَا ، عَنْ أَيَّةِ فُتُوحَاتٍ قَامَ بِهَا الْقُوَّادُ الْمُسْلِمُونَ ، فِى أَنْحَاءِ مُتَفَرِّقَةٍ مِنَ الْعَالَمِ .. فَهَذِهِ الْفُتُوحَاتُ حَدَثَتْ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ ، وَفِى فَتَرَاتٍ زَمَنِيَّةٍ مُتَبَاعِدَةٍ حِينًا ، مُتَقَارِبَةٍ أَحْيَانًا ، كَمَا أَنَّهَا تَمَّتْ عَلَى يَدِ أَكْثَرِ مِنْ قَائِدٍ إِسْلاَمِىٍّ عَظِيمٍ .

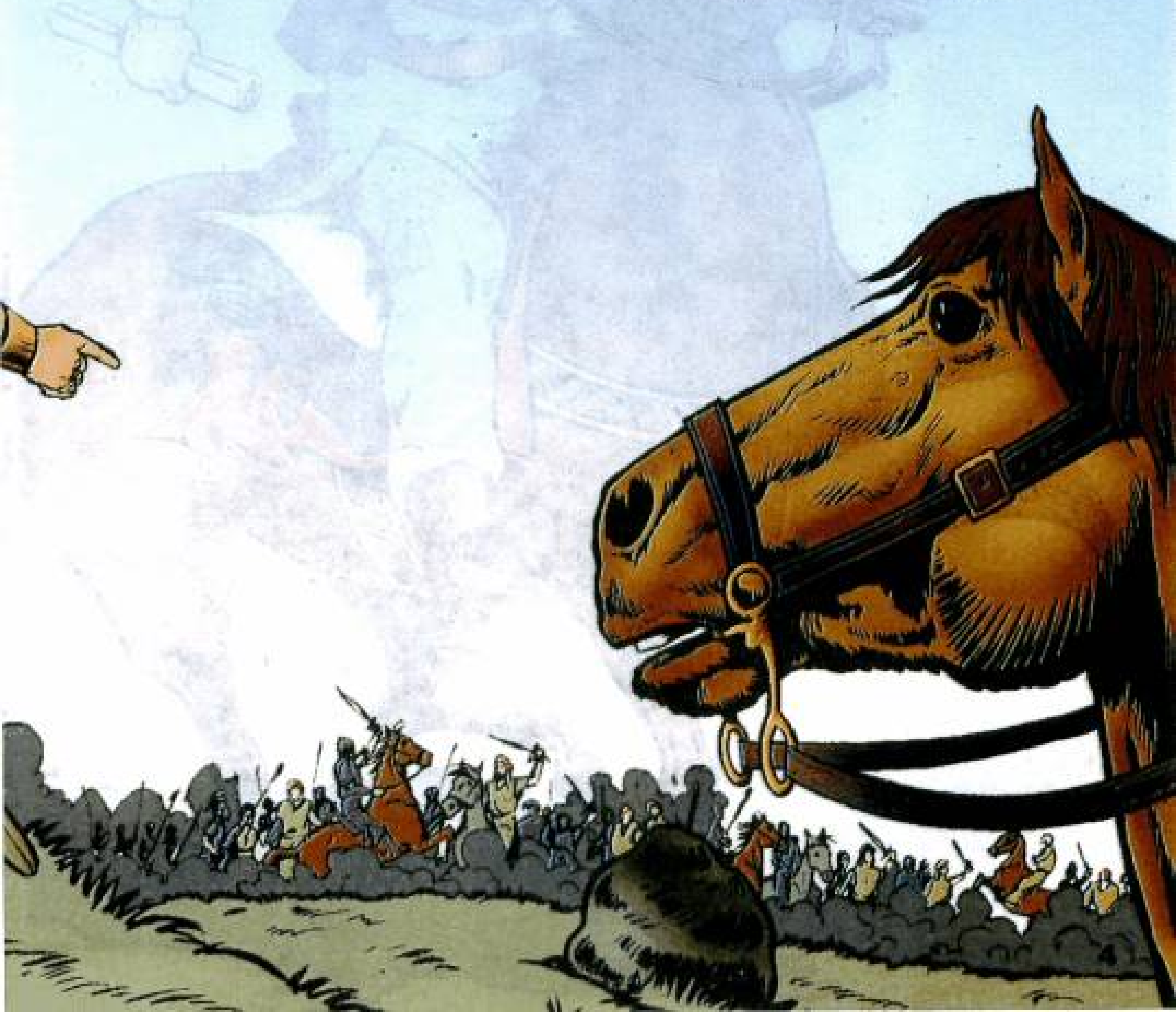
وفى كُلِّ مَرَّةٍ كَانَ يَتِمُّ فِيهَا فَتْحُ هَذِهِ الْبِلاَدِ ، كَانَ يَعْقُبُهَا فِتَنٌ وَثَوْرَاتٌ مِنَ الْبَرْبَرِ - سُكَّانِ هَذِهِ الْبِلاَدِ - بِمُجَرَّدِ انْسِحَابِ جُيُوشِ الْمُسْلِمِينَ مِنْهَا ، وَكَانَ سُكَّانُ هَذِهِ الْبِلاَدِ يَعُودُونَ إِلَى وَثَنِيَّتِهِمْ مَرَّةً أُخْرَى ، مِمَّا يَضْطَرُّ الْقُوَّادَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى إِعَادَةِ الْفَتْحِ مَرَّاتٍ وَمَرَّاتٍ ، حَتَّى اسْتَقَرَّ الأَمْرُ أَخِيرًا لِلْمُسْلِمِينَ وَتَمَكَّنَ الإِسْلاَمُ مِنْ قُلُوبِ هَؤُلاَءِ الْبَرْبَرِ .

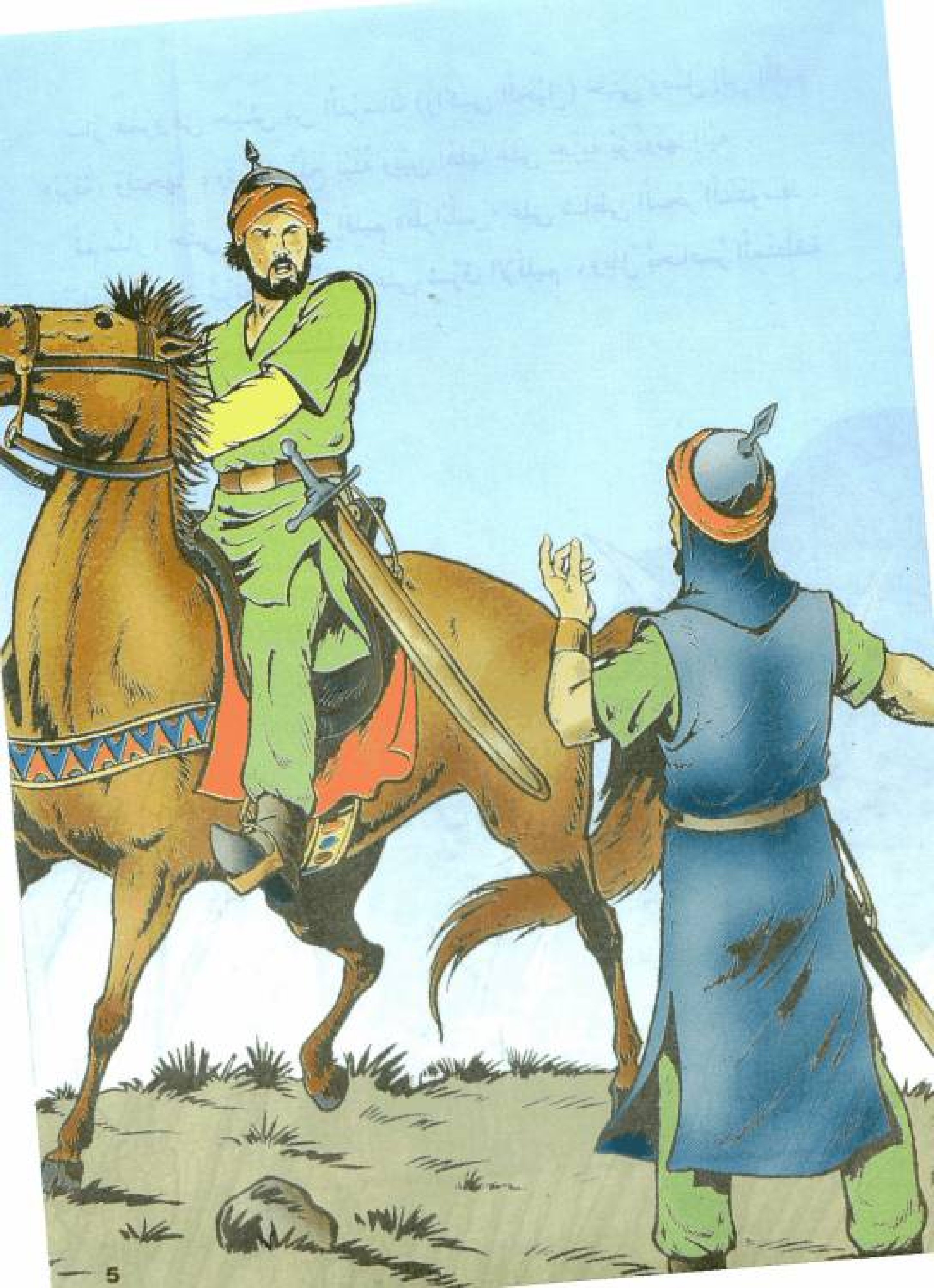




وكَانَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ أَوَّلَ الْفَاتِحِينَ لِبِلادِ الْقَارَّةِ الأفْرِيقِيَّةِ ، وكَانَ قَائدًا إسْلاميًّا يَتَّصِفُ بِالْخِبْرَةِ وَالدَّهَاءِ ، فِي الشُّئُونِ السِّيَاسِيَّةِ وَالْعَسْكَرِيَّةِ ، بالإضَافَةِ إلى كَوْنِه حَاذِقًا بِالْفِطْرَةِ وَالتَّجْرِبَةِ .

فَبَعْدَ أَنْ أَتَمَّ فَتْحَ مِصْرَ ، وَاسْتَتَبَّ لَهُ الأَمْرُ فِيهَا ، فَنَشَرَ الإسْلامَ وَرَفَعَ رَايَتَهُ عَالِيَةً خَفَّاقَةً فَوْقَ رُبُوعِهَا ، بَرَزَتْ شَخْصِيَّتُهُ الْقَوِيَّةُ ، وَصَارَ مَوْضِعَ ثِقَةِ أَمِيرِ المؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ، ثُمَّ أَخَذَ يَتَطَلَّعُ إلى فَتْحِ بَقِيَّةِ بُلْدَانِ الْقَارَّةِ الأفْرِيقِيَّةِ ، وَنَشْرِ الإسلامِ فِيهَا .





سَارَ عَمْرٌو فِي جَيْشٍ مِنَ الْفُرْسَانِ (رَاكِبِي الْخَيْلِ) حَتَّى وَصَلَ إِلَى إِقْلِيمِ «بَرْقَةَ» وَفَتَحَهَا ، وَتَمَّ الصُّلْحُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَهْلِهَا عَلَى جِزْيَةٍ يُؤَدُّونَهَا إِلَيْهِ .

ثُمَّ سَارَ ، حَتَّى وَصَلَ إِلَى إِقْلِيمِ «طَرَابُلُسَ» عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ الْمُتَوَسِّطِ ، وَنَزَلَ عَلَى قُبَّةٍ مُرْتَفِعَةٍ تُشْرِفُ عَلَى شَرْقِ الإِقْلِيمِ ، وَظَلَّ يُحَاصِرُ الْمِنْطَقَةَ لِمُدَّةِ شَهْرٍ ، دُونَ أَنْ تَسْتَسْلِمَ لَهُ .



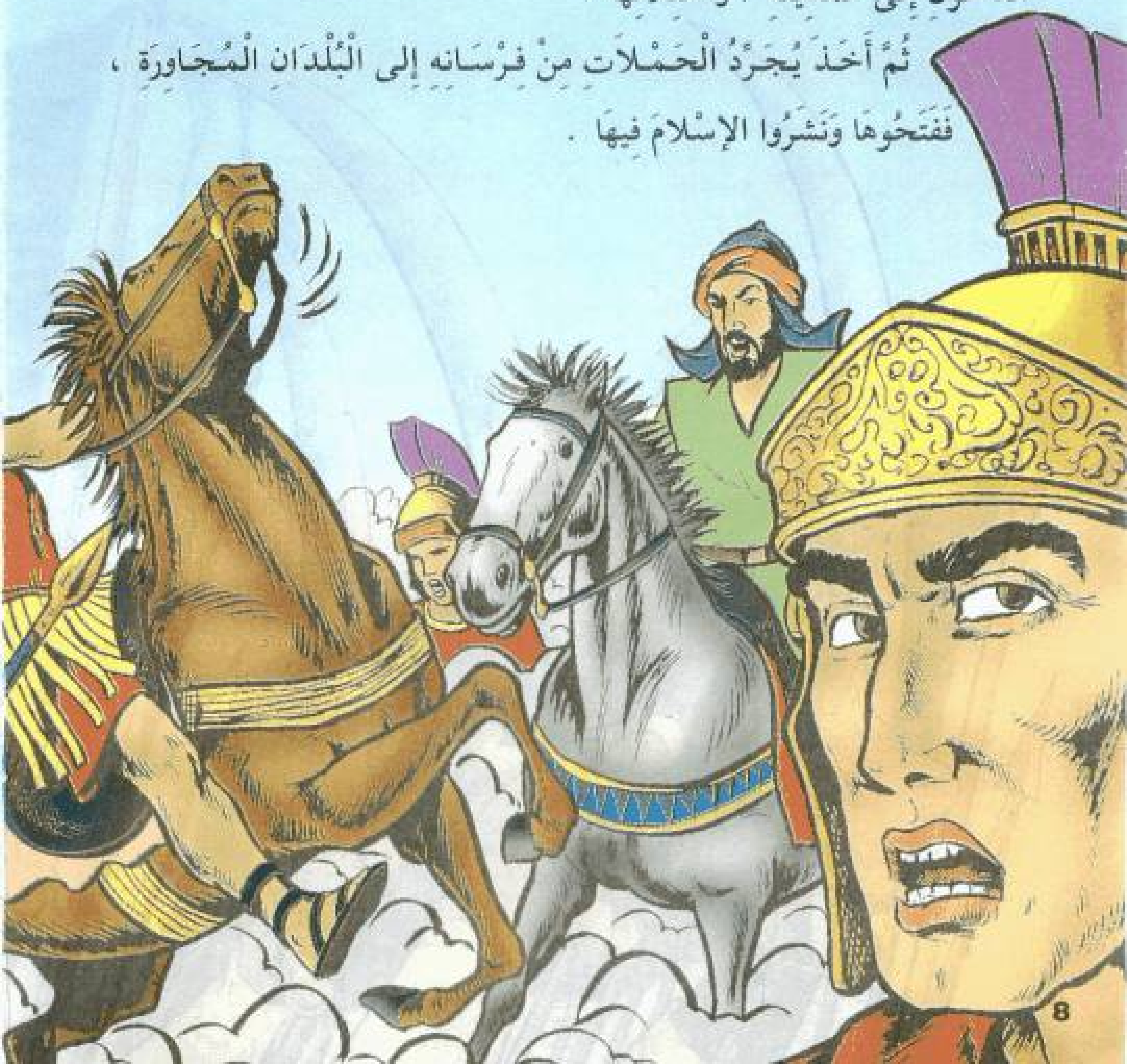


وَذَاتَ يَوْمٍ خَرَجَ جَمَاعَةٌ مِنْ عَسْكَرِ عَمْرٍو لِلصَّيْدِ ، فَلَمَّا ابْتَعَدُوا عَنِ الْمُعَسْكَرِ ، وَأَصَابَهُمُ الْحَرُّ وَالتَّعَبُ الشَّدِيدُ ، جَلَسُوا يَسْتَرِيحُونَ بِالْقُرْبِ مِنْ سُورِ الْمَدِينَةِ الَّذِى يَقَعُ عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ مُبَاشَرَةً فَاكْتَشَفُوا سُفُنَ الرُّومِ الرَّاسِيَةَ بِالْقُرْبِ مِنَ الشَّاطِئِ ، وَقَدْ غَاضَ عَنْهَا الْمَاءُ ، نَتِيجَةَ حَرَكَةِ جَذْرِ الْبَحْرِ .

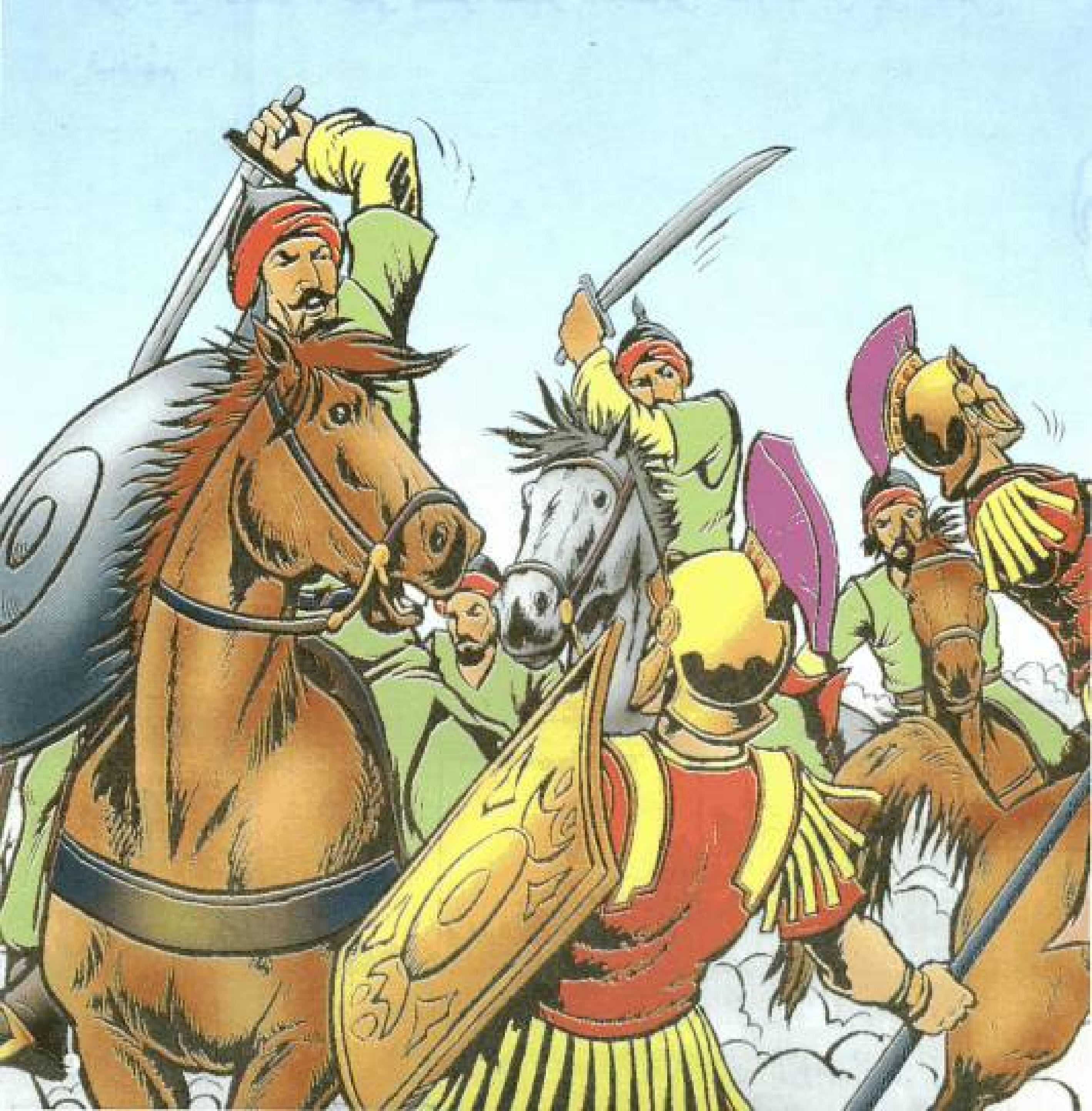
وَفِى الْحَالِ دَخَلَ هَؤُلاءِ الرِّجَالُ إِلى الْمَدِينَةِ فِى غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا ، الَّذِينَ كَانُوا يَسْتَرِيحُونَ مِنْ عَنَاءِ الْحَرِّ ، ثُمَّ وَصَلُوا إِلَى كَنِيسَةِ الْمَدِينَةِ ، فَصَعَدُوا قِبَابَهَا ، وَأَخَذُوا يُكَبِّرُونَ .

فَزِعَ الرُّومُ فَزَعًا شَدِيدًا ، وَهَرَبُوا إِلَى سُفُنِهِمْ ، ظَنًّا مِنْهُمْ أَنَّ جَيْشَ الْمُسْلِمِينَ قَدْ دَخَلَ الْمَدِينَةَ ، وَبِهَذِهِ الْحِيلَةِ تَمَكَّنَ جَيْشُ عَمْرٍو مِنَ الدُّخُولِ إِلى الْمَدِينَةِ ، وَاحْتِلالِهَا .

ثُمَّ أَخَذَ يُجَرِّدُ الْحَمْلاتِ مِنْ فُرْسَانِهِ إِلى الْبُلْدَانِ الْمُجَاوِرَةِ ، فَفَتَحُوهَا وَنَشَرُوا الإِسْلامَ فِيهَا .

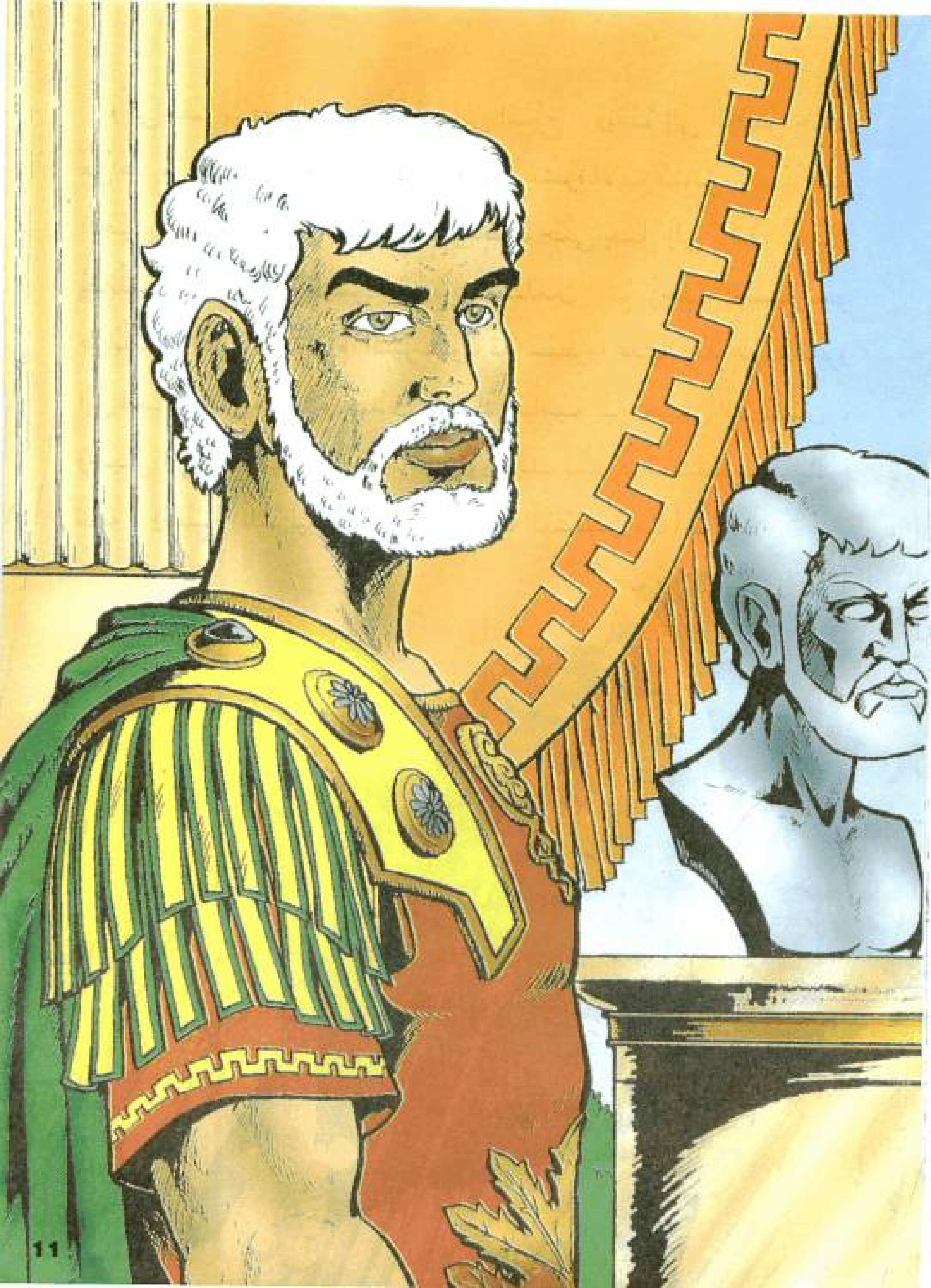


بَعْدَ ذَلِكَ كَتَبَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ ، إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ، يَسْتَأْذِنُهُ فِى مَدِّ الْفَتْحِ الإِسْلاَمِىِّ إِلَى بَقِيَّةِ بُلْدَانِ الْقَارَّةِ الأَفْرِيقِيَّةِ ، فَنَهَاهُ عُمَرُ عَنْ ذَلِكَ . فَمَا كَانَ مِنْ عَمْرٍو إِلا أَنَّهُ أَطَاعَ طَاعَةً كَامِلَةً ، وَرَجَعَ بِجَيْشِهِ إِلَى مِصْرَ ، بَعْدَ أَنْ تَرَكَ عُقْبَةَ بْنَ نَافِعٍ فِى عَدَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ هُنَاكَ .



فَى عَهْد ولايَة عُثْمَانَ بْن عَفَّان ، تَوَلَّى عَبْدُ الله بْنُ أَبى السَّرْح ، حُكْم مصْرَ ، وَطَلَبَ منْ عُثْمَانَ مَدَدًا لتَوْجيه الْفَتْح إلى أَفْريقيَّة ، فَجَهَّزَ لَهُ عُثْمَانُ جَيْشًا منْ أَهْل الْمَدينَة وَفيه جَماعَةٌ منْ أَعْيان الصَّحابَة . (عدَّةُ الْجَيْش ٤آلاف فَارس و ٨٠٠ رَاجل) وَأَعَانَهُمْ عُثْمَانُ بألْف منَ الإبل ، وَ أَمَّرَ عَلَيْهِمْ مَرْوَانَ بْنَ الْحَكَم ، حَتَّى يَصلُوا مصْرَ ، فَيَتَولَّى عَبْدُ الله بْنُ أَبى السَّرْح قيَادَتَهُمْ .





وَفِى مِصْرَ يَسْتَقْبِلُهُمْ عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِى السَّرْحِ ، وَيَضُمُّ إِلى الْجَيْشِ جَيْشًا مِنْ عِنْدِهِ ، لِيُصْبِحَ الْعَدَدُ الْكُلِّىُّ لِلْجَيْشِ عَشَرَةَ آلافِ مُقَاتِلٍ . ثُمَّ يَزْحَفُ الْجَيْشُ بِحِذَاءِ شَاطِئِ الْبَحْرِ الْمُتَوَسِّطِ ، حَتَّى يَصِلَ إِلى بَرْقَةَ ، وَهُنَاكَ يُقَابِلُهُمْ عُقْبَةُ بْنُ نَافِعٍ فِيمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ . ثُمَّ يَزْحَفُ الْجَمِيعُ نَحْوَ طَرَابُلُسَ ، الَّتِى كَانَ الرُّومُ الْبِيزَنْطِيُّونَ قَدْ سَيْطَرُوا عَلَيْهَا بَعْدَ عَوْدَةِ عَمْرِو ابْنِ الْعَاصِ إِلى مِصْرَ وَتَحْدُثُ مَعَارِكُ حَامِيَةٌ بَيْنَ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ ، وَجَيْشِ الرُّومِ ، وَيَنْهَزِمُ الرُّومُ أَمَامَهُمْ ، وَبِذلِكَ يَسْتَرِدُّ الْمُسْلِمُونَ طَرَابُلُسَ ثَانِيَةً ، وَيُصْبِحُ إِقْلِيمُ لِيبْيَا كُلُّهُ تَحْتَ سَيْطَرَةِ الْمُسْلِمِينَ مَرَّةً أُخْرَى .



ثُمَّ يَتَقَدَّمُ عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِى السَّرْحِ بِالْجَيْشِ ، فَيَصِلُونَ إِلَى حُدُودِ تُونُسَ (وَكَانَتْ تُونُسُ فِى ذَلِكَ الْوَقْتِ شَأْنُهَا شَأْنُ بُلْدَانِ حُدُودِ الشَّمَالِ الأَفْرِيقِىِّ) وَاقِعَةً تَحتَ سَيْطَرَةِ الرُّومِ الْبِيزَنْطِيِّينَ .

وَكَانَ سُكَّانُ هَذِهِ الْمَنَاطِقِ كُلُّهُمْ مِنَ الْبَرْبَرِ ، وَكَانَ يَحْكُمُهُمْ مَلِكٌ يُدْعَى جُرْجِير .



وَيطْرُقُ الْمُسْلِمُونَ بِقَبَضَاتِهِمُ الْقَوِيَّة أبْوابَ الْملِكِ جُرْجِير ، الَّذِى يُطِلُّ عَلَيْهِمْ مِنْ مَمْلَكَتِه ، سَائِلاً عَنْ مَقْصِدِ هؤُلاءِ الْقَوْم ، فَيَقُولُونَ لَهُ : إنَّهُمْ يَدْعُونَهُ إلى الدُّخُولِ فِى الدِّينِ الَّذِى دَخَلَ فِيه أهْلُ مِصْرَ ، أوْ دفعَ الْجِزْيَةِ عَنْ يَدٍ وَهْوَ صَاغِرٌ .

ولَكِنَّ جُرْجِير يَعْتَبِرُهَا إهَانَةً تَلْحَقُ بِه كَمَلِكٍ عَظِيمٍ يَحْكُمُ كُلَّ هَذِهِ الْبِلادِ ، الَّتِى تَمْتَدُّ إلى حُدُودِ الْمُحِيطِ الأطْلَسِىِّ .





وَ أَخِيرًا كَانَتِ الْحَرْبُ .. حَشَدَ جُرْجِيرُ جَيْشًا مِنَ الرُّومِ وَالْبَرْبَرِ قِوَامُهُ مَائَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفًا ، الْتَقَى بِجَيْشِ الْمُسْلِمِينَ الْقَلِيلِ الْعَدَدِ والْعُدَّةِ ، وَاقْتَتَلُوا قِتَالاً شَدِيدًا عِنْدَ مَدِينَةِ «سُبَيْطِلَةَ» مَقَرِّ الْمَلِكِ جُرْجِيرَ .

فِى هَذِهِ الأَثْنَاءِ يَنْقَطِعُ خَبَرُ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ عَنِ الْخَلِيفَةِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ ، فَيُرْسِلُ إليهم عَبْدَ اللهِ بْنَ الزُّبَيرِ فِى جَمَاعَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ ، لِيَأْتُوهُ بِأَخْبَارِهِمْ .

فَلَمَّا وَصَلُوا إِلَى مُعَسْكَرِ الْمُسْلِمِينَ ، عَلا التَّكْبِيرُ وَالتَّهْلِيلُ ، مِمَّا جَعَلَ الْخَوْفَ وَالْفَزَعَ يَدِبَّانِ فِى قُلُوبِ عَسَاكِرِ الْمَلِكِ جُرْجِيرَ . وَلَمَّا سَأَلَ جُرْجِير رِجَالَهُ عَنِ الْخَبَرِ ، أَخْبَرُوهُ بِأَنَّ جَيْشَ الْمُسْلِمِينَ قَدْ جَاءَهُ مَدَدٌ عَظِيمٌ . فَأَوْهَنَ ذَلِكَ مِنْ عَزِيمَةِ جُرْجِير .





وَرَأى عَبْدُ اللهِ بْنُ الزُّبَيرِ أَنَّ قِتَالَ الْمُسْلِمِينَ يَسْتَمِرُّ كُلَّ يَوْمٍ مُنْذُ الصَّبَاحِ الْبَاكِرِ ، فَإذَا أُذِّنَ لِلظُّهرِ عَادُوا إلى خِيَامِهِمْ ، فَلا يَتَجَدَّدُ الْقِتَالُ إلا فِي صَباحِ الْيَوْمِ التَّالي .

وَذَاتَ يَوْمٍ كَانَ عَبْدُ اللهِ بْنُ الزُّبَيرِ يُقَاتِلُ فِي صُفُوفِ الْمُسْلِمِينَ ، فَلَمْ يَرَ عَبْدَ اللهِ بْنُ أَبِي السَّرْحِ ، فَلَمَّا سَأَلَ عَنْ سَبَبِ اخْتِفَائِهِ ، عَرَفَ أَنَّ جُرْجِير ، قَدْ نَادَى بَيْنَ جُنُودِهِ بِأَنَّ مَنْ قَتَلَ عَبْدَ اللهِ بْنَ أَبِي السَّرْحِ نَالَ جَائِزَةً عَظِيمَةً ، عِلاوَةً عَلَى التَّزَوُّجِ مِنَ ابْنَةِ جُرْجِير ، لِذَلِكَ فَقَدْ آثَرَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي السَّرْحِ أَنْ يُدِيرَ الْمَعْرَكَةَ مِنْ خَلْفِ الصُّفُوفِ ، حَتَّى لا يُؤَثِّرُ اسْتِشْهَادُهُ عَلَى عَزِيمَةِ جُنُودِهِ ، وَثَبَاتِهِمْ ضِدَّ جَيْشِ جُرْجِير .





وَفى الْيَوْمِ التَّالى أشارَ عَبْدُ اللهِ بْنُ الزُّبَيْرِ على عَبْدِ اللهِ بنِ أبى السَّرْحِ ، بأنْ يُقَابِلَ الْحِيلَةَ بِمِثْلِهَا وَأنْ يُنادِى فِى جُنُودِهِ أيْضًا بِأنَّ مَنْ قَتَلَ جُرْجِير ، فَلَهُ جائِزَةٌ مالِيَّةٌ عَظِيمَةٌ ، عِلاوَةً على تَوَلِّى حُكْمِ الْبِلادِ الَّتى كَانَ يَحْكُمُهَا جُرْجِير .

فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ ، خَافَ جُرْجِير خَوْفًا شَدِيدًا مِنْ جُنُودِ الْمُسْلِمينَ بِرَغْمِ قِلَّةِ عَدَدِهِمْ .

وَلَمَّا طَالَ قِتَالُ الْمُسْلِمِينَ مَعَ جُنُودِ جُرْجِير ، واسْتَمَرَّتِ الْحَرْبُ بَيْنَهُمْ سِجَالا ، لَجَأَ عَبْدُ اللهِ بْنُ الزُّبَيْرِ إلى حِيلَةٍ جَدِيدَةٍ ، مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تُعَجِّلَ بِنِهَايَةِ الْحَرْبِ بَيْنَ الْجَيْشَيْنِ الْمُتَحَارِبَيْنِ ، فَقَدْ أَشَارَ عَلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ أبِى السَّرْحِ ، بِأَنْ يَتْرُكَ جَمَاعَةً مِنْ أَبْطَالِ الْمُسْلِمِينَ فِى خِيَامِهِمْ ، يَسْتَرِيحُونَ وَيَتَأَهَّبُونَ لِمُوَاصَلَةِ الْقِتَالِ ، بَعْدَ أنْ يَسْتَنْفِدَ الْبَرْبَرُ قُوَّتَهُمْ فِى قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ مُنْذُ الصَّبَاحِ ، وَحَتَّى وَقْتِ الظَّهِيرَةِ ، فَإِذَا أَرَادُوا فَضَّ الاشْتِبَاكِ وَالانْصِرَافَ لِلرَّاحَةِ فِى مُعَسْكَرِهِمْ لَمْ يُمَكِّنْهُمْ هَؤُلاءِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ ذَلِكَ .





وَفِى الْيَوْمِ التَّالِى ، مَكَثَ فَرِيقٌ مِنْ شُجْعَانِ الْمُسْلِمِينَ فِى خِيَامِهِمْ لِلرَّاحَةِ ، وَخُيُولُهُمْ مُسْرَجَةٌ ، اسْتِعْدَادًا لِلانْطِلاقِ فِى أَيَّةِ لَحْظَةٍ . فَلَمَّا أُذِّنَ لِلظُّهْرِ ، وَأَرَادَ جُنُودُ جُرْجِير أَنْ يَهُمُّوا بِالانْصِرَافِ لَمْ يُمَكِّنْهُمْ هَؤُلاءِ الأَبْطَالِ مِنْ ذَلِكَ ، وَانْطَلَقَ عَبْدُ اللهِ بْنُ الزُّبَيْرِ مَعَ مَنْ مَعَهُ مِنْ فُرْسَانِ الْمُسْلِمِينَ وَحَمَلُوا عَلَى الْبَرْبَرِ حَمْلَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ .

لَمْ يَتَمَكَّنِ الْبَرْبَرُ مِنْ صَدِّ هُجُومِ الْمُسْلِمِينَ الْمُفَاجِئِ ، وَحَدَثَ ارْتِبَاكٌ عَظِيمٌ بَيْنَ صُفُوفِهِمُ وَالَّتِى اخْتَلَّ نِظَامُهَا وَقُتِلَ عَدَدٌ عَظِيمٌ مِنْ جُنُودِ الْبَرْبَرِ وَقُوَّادِهِمْ ، بَيْنَمَا لاذَ الْبَاقُونَ بِالْفِرَارِ ، أَوْ وَقَعُوا فِى الأَسْرِ .

بَعْدَ ذَلِكَ نَازَلَ عَبْدُ اللهِ بْنُ الزُّبَيْرِ الْمَلِكَ جُرْجِير ، وَبَعْدَ صَوْلاتٍ وَجَوْلاتٍ تَمَكَّنَ مِنْ قَتْلِهِ . وَأُخِذَتِ ابْنَةُ جُرْجِير أَسِيرَةً مَعَ أَسْرَى الْبَرْبَرِ .

وَهَكَذَا تَمَكَّنَ جَيْشُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ حِصَارِ الْمَدِينَةِ ، وَفَتْحِهَا . ثُمَّ أَخَذَ الْمُسْلِمُونَ يَعْمَلُونَ عَلَى نَشْرِ الإِسْلامِ بَيْنَ قَبَائِلِ الْبَرْبَرِ ، وَيُعَلِّمُونَهُمْ أُصُولَ الدِّينِ الْجَدِيدِ .

ثُمَّ . . .





يُرْسِلُ عَبْدُ اللهِ بْنُ أبى السَّرْحِ جُيُوشَهُ فى الْبِلادِ الْمُجَاوِرَةِ ، وَيَتِمُّ فَتْحُ بَقِيَّةِ حُدُودِ السَّاحِلِ الأفْرِيقِىِّ ، وَيُوَلِّى عَلَيْهِمْ حَاكِمًا مِنْهُمْ ، بَعْدَ أنْ يَعْقِدَ مَعَهُمْ صُلْحًا ، وَيَأخُذَ الْجِزْيَةَ الَّتى فَرَضَهَا عَلَيْهِمْ بِاعْتِبَارِهِ مُنْتَصِرًا . ثُمَّ يَعُودُ إلى مِصْرَ مَرَّةً أخْرَى .

وَهَكَذَا تُشْرِقُ شَمْسُ الإسْلامِ عَلَى بُقْعَةٍ جَدِيدَةٍ مِنَ الأرْضِ ، هِىَ شَمَالُ أفْرِيقْيَا .

